اعتاب مرحلة جديدة تتسم بتوقف زخم نموها وتطورها اللذين كانا قد وجدا تربة صالحة لهما إبان اشتعال الثورة الفلسطينية .

ولعل في العمليات العسكرية القليلة التي نفذتها الهجناه ، عقب صدور الكتاب الابيض ، ما يشير الى مدى حراجة وضعها من جهة ، وإلى الوضع المريح لنمو اتسل من جهة اخرى . فقد ارتأت الهجناه ، عند صدور الكتاب الابيض ، ضرورة الرد عسكرياً ضد « المنشآت » البريطانية في فلسطين ، كتعبير عن السخط الصهيوني ضد السياسة البريطانية الجديدة . وفي هذا الاطار، نفذت عملية تخريبية ضد اجهزة بث الاذاعة، الا انها وجدت نفسها، ليست عاجزة عن اصدار بيان بالعملية فحسب، بل عاجزة ايضاً عن تكذيب بيان اتسل الذي نسب فيه العملية الى عناصرها.

وفي العملية الثانية التي ارادت بها التشبه باتسل في ردها على العرب، حدث نفس الشيء. فقد نفذت عناصر الهجناه، بناء على تعليمات المنطقة الشمالية، عملية ارهابية ضد السكان الامنين في قرية بلد الشيخ بخطفها خمسة اشخاص من اهالي القرية وقتلهم ، واشفعت ذلك بعملية اخرى شبيهة الى حدكبير بعملية « بير عدس » ؛ حيث استفردت مفرزة من الهجناه بمنزل عربي يقع على اطراف قرية لوبيا العربية ، والقت قنابلها اليدوية داخل المنزل عن طريق النافذة ، الامر الذي تسبب في مقتل عدد من العرب ، بما في ذلك نساء وطفل ، وهم نيام ، ولم يكن بوسع الهجناه نسب العملية اليها ، وبخاصة لأن صحيفة دافارالناطقة باسم الحركة العمالية شنت بسرعة ، وقبل معرفة هوية الفاعلين ، حملة شعواء ضد المسؤولين عنها وضد « سفالة الارهاب » وشجبت الجريمة ومنفذيها الذين يفتقرون الى اية « احاسيس انسانية »،وانتهت الى القول : « ان ذكرى عملية لوبيا كذكرى العمليات التي سبقتها ، ستحكم بالعار على منفذيها المجرمين أياً كانوا » [٨٠] وقد نسبت اتسل هاتين العمليتين الى عناصرها في بداية الامر ، ودرجت ، فيما بعد ، على اشهارهما كسلاح في وجه الهجناه ، ولا سيما عندما كانت تقوم الاخيرة بادانة اعمال مشابهة تنفذها اتسل .

وسط الوضع الذي تميّز بحالة من الارتباك المّت بالهجناه ونشاطاتها ، وبحالة من المد المتنامي لاتسل ، عقب تثبيتها اقدامها كتنظيم وليد داخل اليشوف ، لم تعد هذه الأخير متحمسة لعقد اتفاق وحدوي مع الهجناه ، يحد من نشاطها ونموها ومنافستها لها للهيمنة على اليشوف اليهودي . ويبدو ان قادتها قد ذهبوا بعيداً ، في هذه الفترة ، في تفاؤلهم في تقدير قوتهم وامكانية « ابتلاع » الهجناه ؛ ويستشم ذلك من رسالة دافيد رزيئيل ، قائد اتسل، الى جبوتنسكي ، حول مسألة التفاوض مع الهجناه إذ يقول فيها : « لقد انتهت تلك الايام التي كان فيها من المجدي لنا ، في ظروف معينة ، التفاوض مع الطرف الثاني . وآمل ان تكون قد ذهبت دون رجعة . لن نوافق على نسبة الخمسين بالمئة ولا على مرحلة الانتقال . سنوافق فقط على ابتلاعهم كلياً ، إذا كانت عملية الابتلاع لا تؤثر على امعائنا . إن ابتلاعاً كهذا لا يبدو ، في هذه الأيام ، بعيداً عن الواقع » [٨١] .

بيد أن الواقع لم يكن بهذا الشكل ، فقد جرت سلسلة من اللقاءات والاتصالات بين